الأخلاق في شعر " أحمد شوقي "

الدكتور : عبد الهادي محمد
قسم الأدب العربي
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة محمد خيضر –بسكرة (الجزائر)

ملخص:

لقد كان لعنصر الأخلاق في شعر "أحمد شوقي" مكانة عليا،باعتباره الأساس لبناء الحضارة، ولقد تناول هذا المقال مكانة الأخلاق في إنتاج أمير الشعـــراء " أحمد شوقي "، ولاحظنا حرص الشاعر على التمسك بالأخلاق، كأساس للحضارة وتقدم البشر، وأن ما تعانيه البشرية اليوم من تفكك مرده إلى انهيار الأخلاق والابتعاد عن القيم النبيلة كأساس للتعامل بين الأفراد و الشعوب والحضارات .

Résume :

It was a component of ethics in the poetry, "Ahmed Shawki," is paramount, as the basis for building of civilization, and this article has addressed the status of ethics in the production of Prince of Poets "Ahmed Shawki," We have noted the poet's adherence to the moral basis of civilization and human progress, and the suffering of mankind today disintegration due to the collapse of morality and noble values away from the basis for interaction between individuals and peoples and civilizations.

.

مقدمـــة:

لقب النقاد " أحمد شوقي" بشاعر الأخلاق لكثرة تكرار ذكره لهذه المسألة في شعره ، ولاحظنا أن قضية الأخلاق تعتبر هما شغل بال الشاعر ، وكان عليه أن يجسد ارتباطه بهذه القضية المهمة، وأن يوصلها للناس إبداعا مميزا، ويجعلهم يتفاعلون معه ويحسون به، وبأهمية الموضوع عليهم وعلى الأجيال القادمة . استطاع الشاعر بموهبته الفذة أن يجعل من موضوع الأخلاق موضوعا إنسانيا لا حدود له، فيقع القارئ لشعر " أحمد شوقي" الأخلاقي تحت طائلة التفاعل و التجاوب، باعتبار الأخلاق هما من هموم المجتمع و أفراده ، وتمكن الشاعر من استخدام مفردات ذات مغزى و معنى واضحين ،جسد من خلالهما ما يصبو إليه . ومن الأهمية التأكيد على أن قضية الأخلاق والالتزام مسألة ضاربة في أعماق الإبداع الأدبي ، وأثارت العديد من النقاش والسجال و لازالت.

ولد أحمد شوقي، عام 1285هـ/1868م في قصر الخديوي إسماعيل لم يكن آباؤه مصريين، فجده لأبيه هو "أحمد علي" قدم إلى مصر في عهد "محمد علي"، كان يحسن العربية والتركية، نشأ "شوقي" في قصر "إسماعيل، وكان يعطف عليه ويبدر بين يديه

بحبات الذهب ، دخل كلية الحقوق عام 1885م، ولما أنشأوا قسم الترجمة في كلية الحقوق مال إليه وتخرج منه بعد عامين [1].

وترجع أصوله إلى أصول أربعة "عربي، تركي، يوناني، شركسي[2]. يقول "عبد الوهاب أبو العز" ولد أمير الشعراء سنة 1868م، سافر إلى أوروبا لتتمة الدراسة سنة 1887م، ودخل مكتبة الشيخ"صالح سنة 1873م، وعاد إلى مصر سنة 1891م، ونفي إلى أسبانيا سنة 1915م، ودخل كلية الحقوق، وعاد إلى مصر أواخر سنة 1919م، [3]. كانت أمه تركية وأبوه كرديًا، وتداخلت في ذلك عناصر متعددة.

فكانت جدته لأبيه شركسية وجدته لأمه تركية، ويجمع الجميع أنه تربى في أحضان القصر وربوعه. وهذا ما أثر على حياته في الكبر، وحول ذلك يقول أحد الدارسين "أمضى طفولته في القصر، وكانت جدته تحضره لمجلس "الخديوي إسماعيل.وقد بدأ دراسته في سن مبكرة، وقد أتم دراسته في التجهيزيه وعمره خمس عشرة سنة، وقد أرسله الخديوي إلى فرنسا فاختار دراسة الحقوق[4].

وتنقل "أحمد شوقي" في عواصم عديدة، وتزود من معارفها، وثقافتها. وتعرف على حضارة تلك العواصم، وزار الجزائر للاستشفاء، ويقول في ذلك "أما جو الجزائر فلا يعدله بين الأجواء

في صحوه وصيب نسخته مع توقد شمسه ،أقمت في الجزائر أربعين يوما أو تزيد[5].

وحول علاقته بالقصر وحبه للمال منذ الصغر، يقول "عائض الردادي" : وفي" السنة الثالثة من عمره دخلت به جدته يوما على "الخديوي إسماعيل"، فنظر إليه ووجد بصره مشدودا إلى السماء، فجمع الذهب على الأرض، أمام عيني الطفل، فاسترخى بصر "شوقي" المشدود إلى السماء، فجمع الذهب فعبث به، فصاح "إسماعيل هذا دواؤه[6].

وحول نشأته الأدبية وثقافته يذكر "أحمد شوقي": "أو لم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا "المتنبي" مثلا حياته العالية ثم يموت على نحو مائتي صحيفة من الشعر، تسعة أعشارها لممدوحيه والعشر الباقي وهو الحكمة والوصف للناس، هنا يسأل سائل: وما بالك تنهي عن خلق وتأتي بمثله؟ فأجيب أني قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلم اليوم، ولا أجد أمامي غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء[7].

علاوة على ما سبق يقول أحد الدارسين "أما العناصر الثقافية فإن "شوقي" حذق العربية والفرنسية، وتلقن التركية في منزله. وانكب على التراث العربي، وأخذ يلتهمه التهاما، وكان لاتصاله

بأستاذه الأزهري "محمد بسيوني"، ولكتاب الوسيلة للمصرفي أثر كبير في شاعريته .أضف إلى ذلك عكوفه على النماذج العباسية واستطاع أن يُكَوِّنَ لنفسه أسلوبا لا يتحرر من القديم ولكن في الوقت نفسه يعبر عن الشاعر وعصره[8].

لقد تنوعت ثقافة "شوقي"إذ تأدب بآداب العرب، فأخذ من كل شاعر أفضل ما عنده، فراقه من "أبي نواس" الغزليات ، وراقه من "البحتري" صفاء الخيال ودقة التصور وجمال الموقع والموسيقى. وأعجبه "من أبي تمام" و"المتنبي" احتفالهما بالمعاني الرقيقة والسعي في إصابتها[9].

لقد كان لنفي الشاعر إلى الأندلس تأثيركبير وتحول عظيم في حياته. فقد سما به هذا التحول وبمكانته أمام الشعب، لأنه ترك القصر، وانتقل إلى الشعب وحركته الوطنية. مع العلم أنه أثناء النفي لم ينظم إلا القليل من الشعر، ومن ذلك أرجوزته دور العرب وعظماء الإسلام "وأثر النفي فيه تأثيره العميق، فيخلق الشاعر معه خلقا جديدا سواء في حياته أم في شعره[10].

ويتضح في أدب المنفى عند "شوقي" الاعتبار بالماضي والاتعاظ بأحداثه، و" شوقي " يصدر عن ثقافته التاريخية وعن طبيعة الأرض التي عاش عليها مدة نفيه ، والتي تقص كل بقعة من بقاعها طرفا من حديث المجد العربي الإسلامي الزائل. وكذلك

استطاع " شوقي" أن يستخلص من تاريخ العرب في الأندلس ، ولكن محاولة الشاعر المنفي ظلت ضيقة الأفق قصيرة اليد ، لقد كان هم شوقي وهو يصور فاجعة العرب بفردوسهم السليب أن يرسم لوحات فنية أنيقة فخمة ترضي ميله إلى إظهار براعته الشعرية ورغبته في التهويل و المبالغة. ولو أن أثرها هنا البساطة و الوضوح [11].

وحول تأثير النفي في إنتاجه الشعري نلحظ أن " أهم ما يميز شعره في هذه الدورة من حياته أن تحول من القصر إلى الشعب. فصوره في آماله الوطنية وحركاته السياسية، ولم يعد شاعرا تقليديا، بل أصبح شاعرا شعبيا، ولكن بطريقته الخاصة.وهي طريقة لم تعد تعتمد على معارضة الشعراء القدماء، وإنما تعتمد اعتمادا عاما على الجزالة و المتانة[12].

وتوزع شعره ما بين المدح و الرثاء و الوصف و التاريخ، و الشعر السياسي و الديني والاجتماعي والمسرحي.ونظم أحمد شوقي في كل الأغراض القديمة، من رثاء وغزل ومدح وعتاب وتميز بعمق العاطفة الإسلامية وحرارة عاطفته الوطنية، وكان ينادي بوحدة المسلمين، ويسعى لتقدمهم ونهضتهم. وقد تربع على إمارة الشعر" فبايعه عليها شعراء العرب أمثال "شلبي ملاط" و" خليل مطران"و "أمين نخلة" و"حافظ إبراهيم"[13].

وفي ذلك يقول" حافظ إبراهيم":

أَمير الشعراء قد أتيت مبايعا وهذه وفود الشرق قد بايعت معي[14]

ومن الأهمية الإشارة إلى أن الأوساط الأدبية في الجزائر قد اهتمت بهذا الحدث واعتبرته حدثا تاريخيا، والتفت إليه دعاة الإصلاح لفتة خاصة، ودعا الشيخ الإمام " عبد الحميد بن باديس" رحمه الله الكتاب والشعراء الجزائريين ليشاركوا في تكريم " شاعر العروبة" بأن يرسلوا بما تجود قرائحهم في هذا الموضوع، وقد سارع الأدباء إلى تلبية هذا النداء، وكادوا يعقدون حفلة التكريم تلك، غير أن الإدارة الاستعمارية منعت هذه التظاهرة الثقافية ، حين أعطتها بعدا سياسيا وفسرتها تفسيرا قوميا*. ويوم أن انتقل " شوقي" إلى رحمة الله عام 1351هـ/ 1932م استقبلت الأوساط الأدبية في الجزائر – آنذاك– نبأ وفاة "الأمير" بهلع شديد، وحزن عميق، واعتبرته كارثة عظمى، وخسارة لا تعوض، فبموته أنهدم ركن من أركان العروبة والإسلام والشرق.وفي هذا الحدث الجلل كتبت " جريدة الشهاب" الناطقة باسم (جميعة العلماء المسلمين) في الجزائر على لسان مؤسسها ورئيسها الإمام الشيخ " عبد الحميد بن باديس" رحمه الله ، " مات شاعر الإسلام الذي كان يعتز بمفاخره ، ويشدو بمآثره، وينطق بلسانه... مات شاعر العربية الذي تشرب روحها، وتملكت هي روحه، فحمى أسلوبها، ونغمها وحمل لواءها

خفاقا في الآفاق ، كما توج على شعرائها في الأقطار باستحقاق، مات شاعر الشرق الذي كان يهتز قلبه لهزاته، وتضطرب حياته لاضطراباته... فيدوي صوتة حتى لتتحرك منه الجبال... وتسري كهرباؤه حتى لترتبط بعد الشتات أوصال...أما جريدة " وادي ميزاب" فقالت: إذا ما بكينا " شوقيا" فإننا نبكي شاعرية من معجزات هذا العصر، نبكي شعرا فياضا، نبكي عاطفة إسلامية، نبكي روحا أنعشت لغة الضاد فبعثت فيها حياة جديدة**وبذلك فقد الأدب العربي أحد رواده الذين تركوا فراغا كبيرا.

الأخلاق جمع خلق ، وهو العادة و السجية و الطبع و المروءة، والدين ،والأصح إطلاقه على الأفعال الحميدة، وهذا المعنى الأخير مرادف في اللغة العربية لمعنى الأدب، لأن الأدب لا يطلق إلا على المحمود من الخصال [15].

إن للأخلاق أهمية كبرى في الإسلام ،لأنها "شيء شامل يشمل كل تصرفات الإنسان وكل مشاعره، وكل تفكيره، حتى الهاجس الذي يهجس داخل الضمير،ولا يوجد في الإسلام عمل واحد يمكن أن يخرج عن دائرة الأخلاق، إن الأخلاق ليست شيئا ثانويا في هذا الدين وليست كذلك محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري، إنما هي ركيزة من ركائزه، كما أنها

شاملة للسلوك البشري كله"[16]. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حول الأخلاق "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[17].

إن للأخلاق مكانة عند "شوقي"، لمكانتها الأصيلة في الإسلام[18]. ويعتبرها الإسلام منهج حياة، رغم تشكيك بعض الناس في ذلك الطرح ،لأن بعض الذين يشككون في إمكان تحقيق هذا المنهج تروعهم أخلاقية هذا المنهج، أصالة العنصر الأخلاقي في تكوينه، وتهولهم تكاليف هذه – الأخلاق– فيه ويتصورونها قيودا وكوابح دون انطلاق الإنسان إلى ما يشتهي ،إن أخلاقية الإسلام لا تتمثل في مجرد مجموعة من القيود والكوابح و الضوابط الرادعة، كلا إنها في صميمها قوة بناءة، وحركة دافعة إلى النمو المطرد إلى الحركة وتحقيق الذات"[19].

إن ما تعانيه البشرية اليوم من تفكك مرده إلى انهيار الأخلاق والابتعاد عن القيم النبيلة كأساس للتعامل بين الأفراد و الشعوب والحضارات "تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية، لا بسب التهديد بالفناء المعلق على رأسها، فهذا عرض للمرض وليس المرض، ولكن إفلاسها في عالم القيم، التي يمكن للحياة الإنسانية أن تنموافي ظلالها نموا سليما وترقى رقيا صحيحا، وهذا واضح كل الوضوح، بل لم يعد لديه ما يقنع ضميره باستحقاقه للوجود [20].

ولاحظنا من خلال أشعار"أحمد شوقي" أن للأخلاق مكانة مرموقة "ولها نصيب وافر في شعره، وهي من خصائص بناء المجتمع السليم، ونلحظ أنه بنى أسس الأخلاق على الشريعة الإسلامية المستقاة من وحي الله ومن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم"[21].كما نلمس حرصه الشديد على التمسك بالأخلاق، كأساس لحضارة وتقدم البشر.

[الوافر]

وليس بعامر بنيان قوم * إذا أخلاقهم كانت خرابا[22]

وشاعرنا الحريص على أن ينهض المجتمع الإسلامي سليم البنيان يلتفت إلى الأخلاق ويراها أس الممالك إذا وهت أندك البناء وهي قوام الحياة ومادتها، فإذا ذهبت عن قوم ذهبت ريحهم، وكانوا خليقين أن تقوم عليهم النادبات بالعويل والنواح . لأن الدول التي تنهزم في الحروب قد تنتصر بعد ذلك وتقوم من كبوتها. أما عثرات الأخلاق فليس منها قيام، بل هو يرى أن الإنسان إذا أصيب فيما دون الأخلاق فقد سلم ونجا أما إذا أصيب الخلق فكل شيء قد يفسد [23].

ولقب بعض الدارسين "أحمد شوقي" بشاعر الأخلاق لكثرة تكرار ذكره لهذه المسألة في شعره، لأنها حسب ما يرى "أساس

حياة الأمم ومجدها وعظمتها وصلاح المجتمع، لذا أكثر "شوقي" من تكرار الحديث عنها في ديوانه، وهو تكرار يدل على ما يراه الشاعر من دور مهم للأخلاق في بناء المجتمع الصالح فهي ركنه الركين" [24].

ويؤكد باحث آخر هذه المقولة بقوله "وقد أصاب الذين وصفوا "شوقي" بأنه شاعر الأخلاق، إلا أن هذا الاصطلاح لا يوفيه حقه بحال، لأن الأخلاق اختلطت في أذهان الناس بالاصطلاح المدرسي المعهود، الذي يقف بها عند القواعد المقدرة في العرف أو ضوابط السلوك، و الذي نريده بالأخلاق عند "شوقي" أمر وراء ذلك ببعيد، فالعباقرة لا ينشدون القائمة في أذهان الناس من الضوابط التي تعينهم على مطلق الحياة ، العباقرة لا ينشدون شيئا من ذلك، أو قل لا يقفون عند ذلك وحدة، لأنهم شاخصون أبدا إلى الكمال بل إلى نوافل الكلام [25].

إن قضية الأخلاق تعتبر هما يشغل بال الشاعر ، وكان عليه أن يجسد ارتباطه بهذه القضية المهمة، وأن يوصلها للناس إبداعا مميزا ويجعلهم يتفاعلون معه ويحسون به وبأهمية الموضوع عليهم وعلى الأجيال القادمة "و الشاعر يرتبط بإحدى قضايا الإنسان ارتباطا شعريا حقيقيا، أي أن الارتباط لا يحدث بين الإنسان الذي

في الشاعر والقضية التي اختارها، وإنما الشاعر الذي في الإنسان والقضية التي استلهمها، لهذا تجيء عملية الارتباط شعرية في الأساليب، لأنها علاقة صميميه بين الذات الشاعرة وإيديولوجية الشعر"[26].

[الطويل]

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت * فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا[27]

يعتبر هذا البيت من أشهر أبيات "أحمد شوقي"، بل أشهر الأبيات الشعرية العربية لكثرة تداوله على الألسن [28]. والتقابل التكراري بين الأمم والبقاء من جانب وذهاب الأمم مع ذهاب الأخلاق من جانب آخر، لم يمارس "شوقي" هذا النموذج في توليد الدلالة الشعرية عشوائيا، بل كان يعتمد عليه نهجا ثابتا في الصياغة وأداة فاعلة في تركيب القول [29].

ويرجع الشاعر سبب تأخر المسلمين لفساد أخلاقهم – فإن ذهبت أخلاقهم ذهبوا – ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين فساد الأخلاق بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن والأخلاق في تكوين الأمم فوق المعارف [30].

و الشاعر يرى أن الأمة " لا تقوم على دعامة غير دعامة الأخلاق ،وليس معنى ذلك أن "شوقي" يحقر من شأن ما سوى الأخلاق، لكن معناه أن الأخلاق عنده في المحل الأول، ولا يمل من يكرر الدعوة إلى الصالح على أنه قوام حياة الأمم "[31].

إن تكراره للفكرة الأخلاقية تؤكد على أن "الشاعر يؤمن بأن الأمم بأخلاقها بقاؤها، ببقائها، وذهابها بذهابها"[32].

و هذا ما أكده رسول الله صلى الله عليه و سلم في أحاديثه و نصائحه للصحابة رضي الله عنهم، وها هو ينصح علي بن أبي طالب رضي الله عنه و يوصيه " يا علي لكل ذنب توبة إلا سوء الخلق فإن صاحبه كلما خرج من ذنب دخل في ذنب"(33).

يقول "أحمد شوقي" :

[البسيط]

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه * فقوم النفس بالأخلاق تستقم [34]

[الكامل]

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم *فأقم عليهم مأتما وعويلا [35]

[الوافر]

بنيت لهم من الأخلاق ركنا * فخانوا الركن فانهدم اضطرابا

وكان جنابهم فيها مهيبا * وللأخلاق أجدرأن تهابا[36]

[الطويل]

كذا الناس بالأخلاق يبقي صلاحهم *ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب[37]

[الرمل]

وإذا الأخلاق كانت سلما * نالت النجم يد الملتمس [38]

[البسيط]

وما السلاح لقوم كل عدتهم *حتى يكون من الأخلاق أهب [39]

[البسيط]

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت * فإن تولت مضوا في إثرها قدما[40]

إن المتمعن في أشعار "شوقي" يلحظ مدى الحرص الذي استطاع الشاعر أن يفرضه على القارئ، ويظهره جليا واضحا، باعتبار الأخلاق أساس حياة الأمم والشعوب، وأساس صلاح أي مجتمع، ونلحظ حرصه على أن يكون المجتمع المسلم متماسكا قويا، لأن صلاح الأمر مرتبط بالأخلاق- صلاح أمرك للأخلاق مرجعه- " إنه لا منجاة للنفس ولا عاصم يعصمها من التحدر في تلك المهالك إلا بتربية الأخلاق الكريمة. وإنما ملكت التقوى حتى يكون منها بين النفس وبين الرذائل حجاب غليظ فلا تطالها شهوة ولا تسطو عليها منقصة"[41].

إن القارئ لشعره الأخلاقي يقع تحت طائلة التفاعل و التجارب، باعتبار الأخلاق هما من هموم المجتمع و أفراده و تمكن الشاعر من استخدام مفردات ذات مغزى و معنى واضحين جسد من خلالهما ما يصبو إليه " إن الشاعر يشعر بتجربته الشعورية شعورا مختلفا ومن هنا فإن مكونات عناصر أدائه التعبيري تعتمد على نسق معقد يتولى مهمة تجسيد الإحساس، ودفع المتلقي كي يتوحد معه في همومه الذاتية التي هي جزء من هموم الإنسان في معاناته الوجودية في مختلف شكولها، وتعدد مظاهرها وتنوع صورها"[42].

ومعظم الآراء تؤكد على ما ذهب إليه "شوقي" في شعره الأخلاقي " ولعمري فما من إنسان يسمو إلى المعالي ويصل إلى الدرجات العلا بأخلاقه العالية التي اتكأ عليها وصانها، فصانته وبوأته أمور السياسة والرياسة، أما إذا وصل إلى مبتغاه من غير طريق حق، فسرعان ما يهوي دون رحمة أو شفقة، وتجول فيه الألسن والمدى. وعندها لا ينتفع لا بدنيا ولا دين، و"شوقي" يرينا أن الأخلاق العالية هي السلم الأمين إلى المكان القويم "[43].

[الكامل]

فلو أن أخلاق الرجال تصورت* لرأيت صخرتها أساسا فيك[44]

وهنا "شبه الأخلاق بالبناء يقوم على صخرة الأساس، ويميز هذه الصورة المستوحاة من هندسة البناء المعمارية قصرها على تصوير القيم السامية و المعاني الأخلاقية، فوراء كل عنصر من البناء المادي معنى من البناء الأدبي في شعر "شوقي"[45].

[الكامل]

المجد و الشرف الرفيع صحيفة *جعلت لها الأخلاق كالعنوان[46]

وما زال "شوقي" يدعو إلى الأخلاق " وفي تتابع قصائده، وتسلسل مواضيعها نجدها مغرقة في الدعوة إلى مكارم الأخلاق، و التحصن بالخصال الممدوحة لدى الناس، لأنها المنقذ من الانهيار والتردي في مهاوي الفساد و الموبقات، فهو يحض على التمسك بمبادئ الأخلاق وقيمها التي عليها يبنى المجد والشرف الرفيع... فإن مكارم الأخلاق التي تنبعث من نتاج التهذيب الصحيح الذي غذى به شعر الإصلاح لبناء الأمم، أصبح لازمة يرددها الناس شاهدا على ضرورة وجودها في التقدم و الرقي"[47].

إن العلاقة ما بين الدين والأخلاق علاقه عضوية " وفي اعتقادي أن الأخلاق لا تنفصل عن الدين، ولا تستقل دونه بقضايا

أو مفاهيم، وبخاصة تلك التي يقوم السلوك فيها، والانطباع على تعاليم السماء وهدي الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك رأينا

" شوقي" يردد هذا القول ويكثر من إعلانه لذلك المبدأ في مثل قوله –على الأخلاق خطوا الملك وابنو–، وقوله– إنما الأمم الأخلاق، وكأنما يؤمن إيمانا قويا أن الشعوب لا تكون حاجتها إلى التربية الخلقية، والتهذيب القويم و السلوك السليم في وقت من الأوقات، أكثر من حاجتها إليها جميعا تريد أن تتلخص من الأغلال و القيود، وتتمرد على الذل والهوان و التبعية والسيطرة"[48].

على الأخلاق خطوا الملك وابنو * فليس وراءها ركن[49]

[الطويل]

كذا الناس: بالأخلاق يبقى صلاحهم* ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب[50]

إن وظيفة الشعر ودوره الأساس هو توعية الناس وربطهم بالقيم والأخلاق التي لا صلاح للأمة، إلا بها، وهذا يندرج ضمن إطار التزام الشاعر بواقع البيئة التي يعيش فيها ومتطلباتها، حتى أن "أحمد شوقي" ربط بين الأخلاق و السعي إلى النهوض و المقاومة وتغيير المنكر الواقع على رأس الشعب من الاستعمار [51].

إن الشاعر استطاع بموهبته الفذة أن يجعل من موضوع الأخلاق موضوعا إنسانيا لا حدود له "إن موهبة الشاعر الحقيقية تكمن في قدرته على الغوص في الشرط الإنساني الكامن في أعماقه، وأعماق من حوله وعلى استنفار هذا الشرط،وعلى خلق الأداة الفنية وتطويعها لمعاناة الشاعر، ومن هنا ينطبق التلازم بين مصطلحي المضمون والشكل في الفن، وتحدد الثورة الشعرية على أنها القفزة النوعية التي يحققها الشعر عن طريق تطوره، وتشمل بنيته كلها، كمضمون وكشكل في آن واحد"(52)

و يعارض بعض من الدارسين الآراء السابقة حول شعر"شوقي" في الأخلاق "فإذا رحت تبحث عن مفهومه لهذه الأخلاق،على فكرته الخاصة بها، عما يريد منها ومن الدعوة إليها والحديث عليها، تجد أن الغموض يسيطر على ذهن "شوقي" في شأنها ، وأن معناها لديه لا يزيد في شيء عما تفهمه عامة الناس منها، فهي مثل أعلى غامض عام لا يبرر في شكل ولا يتحيز في حدود"(53).

و يعيب عليه بعضهم الآخر التكرار، مما أفقد الموضوع معناه وهدفه ومن هؤلاء "مصطفى صادق الرافعي" (54) ، للدفاع عن "شوقي" هنا ينبغي القول: إن وحدة الموضوع هي التي ضيقت

عليه المجال، وأكرهته على المعاودة والتكرار، ولكن من حيث قيمتها الفنية وأسلوبها، فهي كما ترى قريبة المأخذ شائعة التداول لا تكاد تكلف عناء، أو تمتنع على محاولة، وهي بعد تتشابه في المواطن المختلفة، أو تتكرر. حتى ما تكاد تختلف بعض الأحيان إلا على قدر ما يقيم الوزن، أو يفي بمطالب القافية [55].

وهناك من يقول: " إن "شوقي" يعلم هذه المقومات ولا ينكر حاجة الأمة إليها، ولكنه أراد أن يختص مكارم الخلاق من بينها بمزيد عناية وتقدير، وأن ينزلها منها منزلة الأهم، يغني عن نوعه، ولا يغني عن نوعه، فلذلك عرض الفكرة ، في معرض المبالغة أو التجوز.فليس لهما هذا المقام الذي قد يكون لهما في المدح أو الوصف مثلا"[56].

لم تكن الأخلاق ولن تكون عاملا مكبلا للطاقات والانطلاق والتقدم ، والأخذ بزمام الحضارة والرقي، رغم ما يروج له البعض من أنها ذات فوائد سلبية، وأنها تقف أمام حرية الإنسان "إن الاختيار الوحيد في أخلاقياتنا لأي سؤال أخلاقي هو فيما إذا كان يعيق أو يدمر بأي شكل من أشكال طاقة الفرد في خدمة الدولة، فالفرد يجب أن يجيب عن هذا السؤال: هل يؤذي هذا العمل الأمة؟ هل يؤذي أفرادا آخرين من الأمة ؟ هل يؤذي قدرتي على خدمة

الأمة؟. وإذا كان الجواب واضحا على كل هذه الأسئلة، فإن للفرد مطلق الحرية في أن يفعل ما يريد"[57].

إن رؤية "شوقي" للشعر تهدف "إلى كمال الحياة، وما دام يسعى نحو هذا الهدف من أن يبني المخطط الأخلاقي الذي يصل الإنسان بهدى منه إلى الفضيلة والسعادة، لكن الشعر لا يوصل قيم هذا المخطط الأخلاقي بطريقة مباشرة، إنه يوصلنا خلال وسيط نوعي يقدم قيم هذا المخطط تقديما فنيا مؤثرا ،وأعني القيمة الجمالية التي تقترن بلذة التعرف المجدد، والمتعة الكامنة في تكامل الشكل وتناسب العناصر المكونة له، ومن هنا تبدو أهمية الشعر ولو قورنت بأهمية الأخلاق"[58].

رغم ذلك يرفض بعض الناس أن يتحول الشعر إلى حكم وعظية مباشرة، ويؤكد على ربطه بالأخلاق والصدق "أما عدم إبانة حقائق المعاني عن مغزى أخلاقي، أو عدم قيامها على صنعة الشعر وأحكامه وإتقان معناه، مسألة فيها نظر. ولا تقود إلى طريق مسدود، ما لم نؤمن بأن المغزى الأخلاقي للشعر يمكن أن يتحقق بعشرات الوسائل، لا بوسيلة واحدة فحسب، والصدق عن ذات النفس لا يعني المنحى الأخلاقي المنحصر في قالب الحكم في كل حال، ولا يعني وضع الشعر في مرتبة هينة لو كان المنحى الحكمي الذي جاءت به التجارب بصدقه غير واضح، بل لعل

الصدق عن ذات النفس يكون له إثارة أخلاقية أكثر من المنحى الحكمي الذي يوجز التجربة إلى درجة التي تفقدها حيويتها وتجعلها محض قول مأثور"[59].

من خلال شعر"أحمد شوقي" السابق نلحظ دخول الشاعر في معمعة الإصلاح الاجتماعي الذي يعتبر من مسؤولية الأدباء و الشعراء وتعتبر من أهداف وغايات الأدب " في غاية الأدب وكثر الكاتبون فيها، والقائلون : بوجوب نهوض الأدب بمهمة الإصلاح الاجتماعي، ومحاولة النهوض بالأمة، وحملوا الأدباء تبعة التخلف الاجتماعي الملحوظ"[60].

وهذه أهم مميزات الأدب الهادف " أن الأديب الرسالي إن جاز لنا هذا الوصف، هو صاحب القلب النابض و الضمير الحي الذي لا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلا، مهما بلغ وضع أمته من التردي. فهو يسعى المرة تلو المرة إلى أن يجدد الثقة في النفوس ويغير ما بها من ضعف قوة ، لتقبل على تغيير واقعها وتصحيح أحوالها عنه، فلحقها من تفسخ وفساد تحري كيانها تحريا شديدا، ما نزال إلى اليوم، نعاني من آثاره العميقة ومن جراحه الغائرة "[61].

لقد ربط "أحمد شوقي" بين الأخلاق وبين كل شيء يتحرك على وجه المعمورة، وننظر كيف ربط بين النحله والأخلاق بحيث أنه استطاع "امتزاج عنصر المعاني الدينية امتزاجا عضويا كيمائيا بكيان البيت من الشعر في صميم خلقه الفني، وذلك لأن القصد الفني هو المعنى والتعبير القرآني"[62].

[رجز مجزوء]

مخلوقة ضعيفة * من خلق مصوره

يا ما أقل ملكها * وما اجل خطره

قف سائل النحل به * بأي عقل دبره

يجبك بالأخلاق وهـــ * ـــي كالعقول جوهره

تغني قوي بالأخلاق ما * تغني القوي المفكرة

ويرفع الله بها * من شاء حتى الحشرة [63]

يقول "زكي مبارك" معلقا على الأبيات "ولا ينبغي أن تفوتنا هذه الفرصة فنمهل بهذه الظاهرة الغريبة في حكم " شوقي"، فإن الرجل فيما يظهر من شعره ومن أخلاقه الحيوية، كان مأخوذا بالحرص على طيبات العيش، وكان مشغوفا بمعاودة التفكير في الأخلاق المعيشية، وليتأمل القارئ في قوله: – من خلق مصورة– ووصفه الأخلاق بأنها جوهرة كالعقول، يريدانها هبة دقيقة خفية لا

يعلم أسرارها غير علام الغيوب، وهذا معنى لا يدرك إلا بدقة التأمل فإن الخلق الصالح خلق العيش و الحياة من الأسرار الخفية **(64)**"

وفي الأخير نلحظ رفض "أحمد شوقي" تجريد الشعر من الأخلاق، ومن عامل القيم والالتزام النافع، ودوره الإصلاحي في حياة الناس على ألا يكون الأدب أو الفنون عامل هدم وانحلال "ومن العبث أن نحاول تجريد الأدب أو الفنون عامة من القيم التي نحاول التعبير عنها مباشرة أو التعبير عن وقعها في الحس الإنساني، وإذا استطعنا تجريدها من القيم لن نجد بين أيدينا سوى عبارات خاوية أو خطوط جوفاء أو أصوات غفل أو كتل صماء"(65) ، إن التزام الأدب بالإسلام هو رسم للقيم الإنسانية الرفيعة من زاوية التصور الإسلامي لهذه القيم التي تتخمر وتتفاعل في نفسية المبدع المسلم فتصبح جزءا من شخصيته ينقلها بعد ذلك في إطارها الشعوري(التأييد الداخلي للقضية)، إلى إطارها التعبيري (التأييد الخارجي للقضية)، في شكل آثار وإنتاجات إبداعية، ومن هنا يلتقي الفن بالقيم والجمال بالحق والإبداع بالمبادئ، ولن يكلف الأديب المسلم نفسه عناء تتويج إبداعه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية حتى يدرج إنتاجه في مصاف الأدب

(الديني) أو الإسلامي ، لأنه فنان بطبيعته متفتح بكل أحاسيسه مشاعرة على قيم الكون والإنسان والعالم، متفاعل بكل وجودة مع جوهر هذه القيم ، ولأن عقيدته الإسلامية وتصوره المفتوح يجعلان منه دون تكلف إنسانا حساسا تتحرك أعماقه بشتى المعاني التي تستهدف التعبير، وتتخذ إليه الوسائل من أجل إخراج تلك التجارب الشعورية بأسلوب جمالي مؤثر(66). وللشاعر قدرة تعبيرية آسرة، ولكنة لا ينساق وراء طلاوة الكلمة، وحلاوة النغم ، بل يريد من الشعر أن يأتي قويا يعبر عن موقفه الإيماني(...) وحسن الشاعر المواءمة بين المضمون وشكله، فحين تتبدى العواطف البشرية والخلجات النفسية يأتي التناغم في الصوت والرونق في اللفظ ، والرقة في الكلمة (67). وسيبقى "أحمد شوقي" من أكثر الشعراء قديما وحديثا تناولا لموضوع الأخلاق(68). لأن الأخلاق أساس الدين الأسلامي الحنيف. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "، والقائل " أفضل الناس إيمانا أحاسنهم أخلاقا."

خاتمـــة:

ظهر لنا بجلاء وبوضوح مدى تركيز الشاعر" أحمد شوقي" على مكانة الأخلاق العليا في الإسلام ، وفي حياة الأمم والشعوب ، ومدى نجاح أمير الشعراء في تأكيده على أن الأخلاق أساس الحضارات، وعنوان رئيس للنهضة.ولاحظنا كذلك الأثر القرآني في أشعار " أحمد شوقي" ، ومدى استفادة الشاعر من معاني القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة، وبالنسبة للغة الشاعر فقد كانت مرتبطة بالواقع ، فاللغة " الشوقية " بسيطة سهلة معبرة وموحية ، ومرد ذلك رغبة الشاعر في إيصال ما يكتبه إلى الناس بسهولة ويسر – دون تعقيد– للتأثير فيهم.وحثهم على التمسك بمكارم الأخلاق.

هوامـــش ومراجـــع

1. إيليا الحاوي: أحمد شوقي أمير الشعراء، ج2، دار الكتاب اللبناني، ط2، بيروت،1980م، ص5.
2. ضحى عبد العزيز: أحمد شوقي حياته وشعره، دار كرم،دمشق ، سوريا،[د.ت]. ص27.
3. أحمد شوقي: الشوقيات المجهولة، ج1، (جمع وترتيب محمد صبري)، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، [د.ت]. ص5.
4. د.عبد العزيز محمد الفيصل: وقفات على الاتجاه الإسلامي في الشعر العربي، مطابع الفرزدق ،الرياض، السعودية، 1414هـ ،1994م .ص81، وينظر ضحى عبد العزيز:أحمد شوقي حياته وشعره، ص28،29،30 .
5. ضحى عبد العزيز: المرجع نفسه، ص31،32.
6. عائض بنيه الردادي: التدين والمجون في شعره شوقي، النادي الأدبي، الرياض، السعودية،1401هـ ،1981م. ص13.
7. أحمد شوقي :المصدر السابق ، ج1،ص19،20.

8. عائض الردادي :المرجع نفسه ،ص15،16.
9. حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، لبنان، [د.ت]، ص975.
10. كاظم حطيط : دراسات في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت، لبنان،1977م.ص281.
11. صالح الأشتر: أندلسيات شوقي، مطبعة جامعة دمشق، ط1، دمشق، سوريا، 1378هـ ، 1995م .ص172.
12. د.شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، ط3، القاهرة، مصر، 1961م .ص118.
13. إيليا الحاوي :أحمد شوقي أمير الشعراء،ج2،ص7.

*- د. محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط01، 1985م. ص 54.

**- المرجع نفسة: ص 65. عن جريدة " الشهاب" الجزائر، (نوفمبر)1932م. م08،ع11ص605. وجريدة وادي ميزاب " النور"(دمعة ميزاب الحارة)، الجزائر،ع 96 1932/02/21م.

14. حافظ إبراهيم : الديوان، ج1، دار العودة، بيروت، لبنان، [د.ت]. ص18.
15. فؤاد أفرام البستاني : دائرة المعارف، ج7، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان،1967م. ص432.
16. محمد قطب: دراسات قرآنية، دارالشروق، ط02، بيروت،لبنان،1400هـ،1980م. ص130،131.
17. محمد بن جميل زينو: قطوف من الشمائل المحمدية والأخلاق النبوية، دار الخراز، جدة ، السعودية، [د.ت] . ص42.
18. للاستزادة، ينظر : عبد الجندي ناصف: الدين والأخلاق في شعر شوقي،مكتبة نهضة مصر،ط02 ، الفجالة، القاهرة، مصر،1964م. 254،247.
19. سيد قطب:هذا الدين، هذا الشروق، بيروت، لبنان،[د.ت]. ص31،32.
20. سيد قطب : معالم في طريق، دار الشروق،ط10، بيروت، لبنان، 1403هـ، 1980م. ص5.
21. عبدالمجيد الحر: أحمد شوقي أمير الشعراء ونغم اللحن والغناء، دار الكتب العلمية، ط01، بيروت،لبنان،1413هـ،1992م. ص205.

22. أحمد شوقي: الشوقيات،ج1،دار الكتب العلمية، (تقديم د.محمد حسين هيكل)، القاهرة،مصر،1946م.ص65.
23. عبدالجندي ناصف: الدين والأخلاق في شعر شوقي، ص138.
24. عائض بنية الردادي:التدين والمجون في شعر شوقي،النادي الأدبي، الرياض ،السعودية،1410هـ،1981م. ص138.
25. حلمي على مرزوق: شوقي وقضايا العصر و الحضارة، دار النهضة،ط02، بيروت، لبنان،1980م. ص121، وينظر الدين والأخلاق في شعر شوقي، ص265،266.
26. د.غالي شكري:شعرنا الحديث إلى أين، دار الآفاق الجديدة، ط2، بيروت، لبنان، 1978م.ص179.
27. الشوقيات،ج1،ص224.
28. ينظر الشوقيات،ج1،ص12.
29. د.صلاح فضل: " نص شعري وثلاث مناهج نقدية"، فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (أكتوبر)، (مارس) 1986م،1987م .ع02،01 ، ص257.
30. شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، مكتبة الحياة، ط2، بيروت، لبنان، [د.ت]. ص75.
31. الشوقيات،ج1،ص11.

32. صالح الاشتر: أندلسيات شوقي، مطبعة جامعة دمشق، دمشق ،سوريا،1378هـ،1959م.ص172.
33. علي فضل الله: الأخلاق الإسلامية، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1378هـ 1968م .ص10.
34. الشوقيات،ج1،ص203.
35. الشوقيات،ج1،ص191.
36. الشوقيات،ج1،ص65.
37. الشوقيات،ج1،ص42.
38. أحمد شوقي: دول العرب وعظماء الإسلام، مطبعة مصر،القاهرة، مصر، 1933م.ص48.
39. الشوقيات،ج1،ص55.
40. الشوقيات،ج1،ص224.
41. سليم البشري: نهج البردة وعليه وضح البردة،(تقديم محمد المويلحي)، مطبعة الأزهر، القاهرة، مصر، [د.ت] . ص20،21.
42. سعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث" مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية"، دار النهضة، ط03، بيروت،لبنان، 1984م. ص10.

43. د.محمد محمود نوفل: " الطوابع الإسلامية في شعر شوقي"، الهداية،وزارة الأوقاف، المنامة، البحرين،(نوفمبر) 1991م.ع171، ص58.
44. الشوقيات،ج1،ص171.
45. د.محمد الهادي الطرابلسي: خصائص الأسلوب في الشوقيات،منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1981م . ص185.
46. الشوقيات،ج3،ص158.
47. عبد المجيد الحر: أحمد شوقي أمير الشعراء ونغم اللحن والغناء،ص206.
48. د.إبراهيم أبو الخشب :"إسلاميات احمد شوقي"، الأزهر،القاهرة، مصر، (يناير) 1975م.ع10 ، ص1056،1057.
49. الشوقيات،ج4،ص194.
50. الشوقيات،ج1،ص42.
51. للاستزادة ينظر الأزهر،ع10 ، ص1060، 1061.
52. جلال فاروق: الشعر العربي الحديث "الأصول الطبقية والتاريخية"، منشورات إتحاد الكتاب العربي، دمشق، سوريا. 1976م.ص9.

53. عبد اللطيف شرارة: شعراؤنا "شوقي"، دار بيروت، لبنان، 1970م. ص15،14.
54. ينظرصالح الأشتر: أندلسيات شوقي، ص 172،173 .
55. عبدالجندي ناصف: الدين والأخلاق في شعر شوقي، ص274،275.
56. المرجع نفسه، ص280.
57. ت.أليوت :" الدين والأخلاق"،(ترجمة صلاح الصبحي)، الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، (تموز) 1974م . ع01 ،ص79.
58. د.جابر عصفور:مفهوم الشعر"دراسة في التراث النقدي"، دار التنوير للطباعة، بيروت،لبنان، 1983م . ص170.
59. المرجع نفسه،ص68.
60. د.عبد القادر هني: "الشعر في ملتقيات الفكر الإسلامي"، مجلة معهد اللغة العربية وآدابها ، جامعة الجزائر ،1992م. ع01، ص43،44.
61. د.بدوي طبانة : التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1404هـ،1985م. ص162.

62. د.مصطفى الصاوي الجويني:" الشعر المصري"، العربي ، الكويت، (محرم) 1385هـ، (مايو)1965م . ع78، ص40.
63. الشوقيات،ج1،ص149،150.
64. أحمد عبيد: ذكرى الشاعرين، المكتبة العربية، مطبعة الترقي ،ط1، دمشق، سوريا،1351هـ . ص380،381.
65. سيد قطب:النقد الأدبي أصوله ومنهاجه،دار الشروق، بيروت، لبنان، 1400هـ، 1980م. ص100.
66. د. نصرالدين بن غنيسة: في بعض قضايا الفكر والأدب " جولات في العقلين العربي والغربي"، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط01، الجزائر، 2002م.ص102.
67. محمد عبدالرحمن الشامخ: البحث عن أدب حديث" يصلح الأرض العربية ولا يفسد فيها"، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، السعودية، (فبراير) 1998م. ص 86،87.
68. للاستزادة ينظر: الشوقيات،ج1،ص11. عبد الجندي ناصف: الدين والأخلاق في شعر شوقي،ص261،حتى284، عائض الردادي:التدين والمجون في شعر شوقي،ص170حتى 179،الأزهر ،ع10،ص1061.